

# البحث عن ثعلب الماء مهمة صعبة كالفوز باليانصيب

## حملة استكشافية لحيوان نادر موطنه الأصلي في أهوار العراق



هل تعتبر مهمة البحث عن ثعلب الماء الذي يستوطن الأهوار والمصنف في عداد الحيوانات المنقرضة مهمة مستحيلة؟ الناشط البيئي العراقي عمر الشبخلي يجيب برحلة استكشافية في المنطقة يحده الأمل بأن يعثر على مبتغاه ذات رحلة لما لهذا الحيوان من أهمية حيوية للأراضي الرطبة.

الجبايش (العراق) - صرخ عمر الشبخلي على جسر يضيئه نور القمر على بعد عدة كيلومترات من الشاطئ في مستنقعات العراق الجنوبية المشهورة، "لا تحركوا عضلة".

ووقف الجميع بلا حراك. وكان الشبخلي يضيء مصباحا يدويا عبر بقعة موحلة، وقال وهو يهز رأسه "لا شيء". وتحرك فريقه المخون من خمسة أشخاص في انسجام تام من جديد. وقاد المدافع عن البيئة هذه الحملة الاستكشافية منذ منتصف الليل عبر مستنقعات الجبايش ضمن رحلة كانت الإحدث في مهمة خيالية امتدت لما يقرب من عقدين، للعثور على أي مؤشر على وجود حيوان القضاة الذي يطلق عليه أيضا اسم ثعلب الماء، وهو حيوان من الأنواع المهددة بالانقراض، حيث استوطن في العراق ويُعد وجوده غير المستقر أمرا حيويا للأراضي الرطبة الشهيرة.

وقد ذهبت معظم مساعي الشبخلي سدى، فقد كان ثعلب الماء سريع البديهة متقدما بخطوة دائما.

وبينما يلوح تغير المناخ في الأفق، يكتسب العثور على أدلة على وجود هذا الحيوان الذي يسمى محليا "جليب الماي" أهمية جديدة.

### أمل لا ينقطع

لكن العدو الأكبر لأنواع ثعلب الماء المتوطنة في العراق هو عدو لا يُحصى: الماء.

وقال الشبخلي، وهو يجبر في مجرى مائي واسع، إن القنارة باكملها كانت جافة في العام الماضي فقط. ثم عباتها الفيضانات، لكن قلّة هطول الأمطار هذا العام تهدد مستويات المياه مرة أخرى.

وأكد الخبراء أنها تتناقص بمقدار سنتيمتر واحد في اليوم بالفعل.

وقالت أم منتظر، وهي إحدى النساء المحليات، عندما تحف المياه تهاجر الطيور وتموت مواشيسها. وأضافت "لم تعد المنطقة صالحة للعيش".

وتقدر الأمم المتحدة أن ما لا يقل عن 250 كيلومترا مربعا من الأراضي الخصبة في العراق تفقد سنويا بسبب التصحر.

ومن المرجح أن يؤدي ارتفاع الملوحة إلى تقليل أعداد الأنواع المتوطنة إن لم يكن القضاء عليها.

ويلقى العراقيون باللوم إلى حد كبير على مشروع سد اليسو التركي الذي أدى إلى نقص المياه.

وقال مسؤولون أتراك إن طلب العراق بأن تفرج أنقرة عن كمية محددة من المياه كل عام أمر مستحيل في عصر تغير المناخ.

وقال مسؤول تركي تحدث شريطة عدم الكشف عن هويته "نحن نعاني، هناك الكثير مما لا يمكن التنبؤ به".

وفي بحيرة مفتوحة على أعتاب هور الحصار أوقف الشبخلي القارب ونزع حذائه بسرعة، ونزل في الماء إلى أن انغمست ركبته، وكان شعره المجدد يرقص في مهب الريح وهو يمسك بعضا خشبية.

ويقول دعاة حماية البيئة إن الضغط من أجل الحفاظ على المنطقة يتطلب معجزة، فقد تعرضوا للتهديد من جميع الجهات، لكن الشبخلي كان منغمسا في

مهمته الخاصة، وقال "اسمعوا، اسمعوا".

وقال الشبخلي إن هذا قد يفسر سبب صعوبة اكتشاف ثعلب الماء، مضيفا أن "ثعلب الماء نكية وتعرف أنها مُهددة وتغير سلوكياتها" وقد خدمتها القدرة على التكيف بشكل جيد طوال تاريخ العراق المضطرب. وكان يخشى أن تنقرض ثعلب الماء عندما جف صدام الأهوار في التسعينات لظرد المتطرفين الشيعة المحتبئين.

ومنذ 2003 كان عليها أن تبحر في عراق جديد حيث كان التوسع الحضري المتزايد والتصنيع يُشكل أولوية.

ونتيجة لذلك تفقد مجتمعات الأهوار العراقية الأراضي الرطبة التي تعيش فيها بشكل متزايد.

### شج المياه

في منطقة ترعى فيها جواميس الماء كان صبي عربي من الأهوار يعتني بالحيوانات، بينما كانت وراء مشاعل النفط تطلق أعمدة من الدخان في الهواء، وهو مشهد منتشر في كل مكان في جنوب العراق الغني بالنفط الخام.

توقف الشبخلي وسألها متى رأيا ثعلب ماء آخر مرة؛ إذ تبقى الشهادات المحلية جزءا رئيسيا من جهود المسح.

وقال أحدهم وهو يجمع البوري وسمك السلور والشبوط في شاحنة صغيرة "ربما قبل عام واحد".

فعبس الشبخلي، وأوضح أن "هذا يعد مصدر قلق كبير، فإذا كان المجتمع المحلي يراها نادرا، فهذا يعني أن شيئا ما قد حدث".

بالنسبة إلى علماء البيئة تُعرف ثعلب الماء بكونها من "المؤشرات الحيوية" التي لا يمكن الإستهانة بأهميتها، وهي من الأنواع التي تُستخدم لتقييم صحة نظام بيئي كامل.

ولأنها على رأس السلسلة الغذائية في الأهوار العراقية، فهي تأكل الأسماك وأحيانا الطيور، مما يجعل وجودها يضمن التوازن.

وكانت أعداد ثعلب الماء وقيرة من قبل، وقد كتب المستكشف البريطاني ويلفريد ثيسيجر، وهو معاصر ماكسويل، في كتاب "عرب الأهوار" عن مناسبة واحدة عندما شاهد اثنين من ثعلب الماء يلعبان على بعد مئة ياردة، وقال "ظهرنا منتصبين في الماء، ونظرا لينا لبضع فوان، قبل أن يغوصا ويختفيا".

في تلك اللحظة لمس مرافقه العراقي مسدسه وقال "جلودها تساوي دينارا للقطعة الواحدة". وكانت جلود ثعلب الماء المتينة شائعة بين المهريين الذين استخدموها لنقل البضائع غير المشروعة.

ورغم أن صيدها أخذ في التراجع إلا أن اللوم يقع جزئيا على الصيد بالكهرباء، وهو غير قانوني، ولكنه يمارس على نطاق واسع في الجنوب، حيث يشل الكهرباء ثعلب الماء، ويموت معظمها.

وكان للصيادين الذين تحدثت إليهم مراسلة الأسوشيتد برس في وقت سابق أجهزة كهربية على متن قواربهم، وكانت ظاهرة على الرغم من محاولات إخفائها بالسجاد.

بهذوء. وتقدم طائر الرقراق برأسه للقبض على الفريسة المطمئنة.

وبينما كانت حشرات اليعسوب تطارد قافلته التي تحملها المياه، سمى الشبخلي أي حيوان يعبر طريقه وكأنه من معارفه. وأشار إلى الشربير المخطط ومالك الحزين، فقد كان يدرس هذه الكائنات لمدة 18 سنة، لكن العثور على ثعلب الماء المراوغة ذات الفرو الأملس يعادل الفوز في اليانصيب.

ومنذ أن اكتشفها عالم الطبيعة الاسكتلندي غافن ماكسويل في 1956 لم يتم تصوير ثعلب الماء، التي تتميز بفروها الداكن الأملس وذيلها المسطح، سوى مرتين فقط عندما عثر عليها لأول مرة.

وذكر الرحالة كيفن يانغ في كتابه "العودة إلى الأهوار" أن عالم البيئة ماكسويل أعجب خلال زيارته أهوار العراق في خمسينيات القرن الماضي بثعلب الماء ناعمة الفراء، ونقل واحدا منها إلى لندن قبل أن يكتشف عن طريق الصدفة أنه غير مسجل علميا من قبل فمنحه آنذاك العلماء البريطانيون اسما علميا جديدا.

### صورة نادرة

المرة الثانية التي صور فيها ثعلب الماء جاعت بعد 60 سنة بكاميرا الشبخلي، حيث يبلغه السكان المحليون أن ثعلب الماء شوهدت في جزء من الأهوار بالقرب من الحدود الإيرانية.

وانتظر على أنقاض طريق عسكري قديم أقامه صدام حسين خلال الحرب العراقية الإيرانية ست ساعات. وراى ثعلب الماء لبضع فوان فقط.

ونظرا لضعف تمويل الجهود البحثية وصعوبة العثور على ثعلب الماء نفسها اعتمدت الدراسات حول هذه الأنواع على جلود هذه الحيوانات الميتة كدلالة على وجودها.

وفي يناير 2006 كان جلد ذكر بالغ عرضه صياد محلي من بين المؤشرات الأولى على أن ثعلب الماء ما زالت موجودة.

وفي هذه المهمة راقب الشبخلي العلامات التي تتركها ثعلب الماء وراءها (أثار أقدام، ورؤوس أسماك مهملة...).

ويذهب الشبخلي إلى المناطق التي تفضلها ثعلب الماء، مثل البحيرات التي يصطف القصب على جانبيها والشواطئ الموحلة، بحثا عن أثرها.

وفي الأهوار الوسطى بمحافظة ذي قار، صادف فريقه صيادين اثنين يفرغان حمولتهما اليومية.

مستويات المياه التي لا يمكن التنبؤ بها بشكل خطير والصيد غير القانوني والإهمال إلى تراجعها.

ومن المقرر أن يواجه العراق صيفا حارا هذا العام، حيث تتسبب مشاريع السدود التركية على نهري دجلة والفرات في تقادم سنة من انخفاض هطول الأمطار.

وقال وزير الموارد المائية مهدي رشيد الحمداني هذا الشهر إن "هناك أزمة حقيقية". وذكر أن معدلات المياه في كلا النهرين بلغت نصف ما كانت عليه العام الماضي.

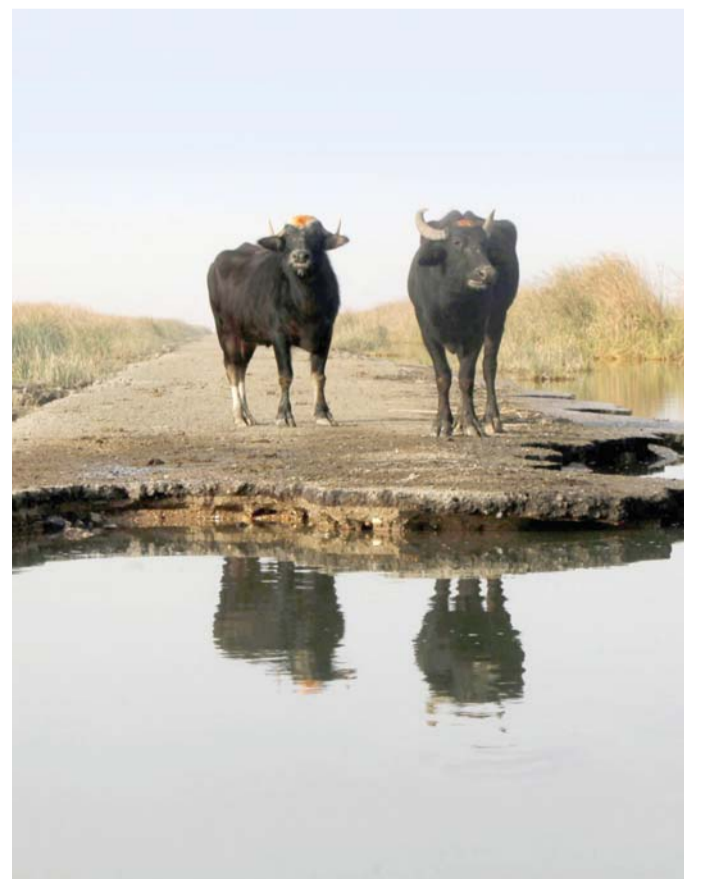
رافقت وكالة أسوشيتد برس الناشط البيئي الشبخلي وفريقه في مهمة استغرقت 12 ساعة على مدى يومين في أوائل مايو. وفي الثامنة من صباح اليوم الثاني غادر الشبخلي مرة أخرى.

واجتاز في زوارق خشبية طويلة ممرات مائية ضيقة تصطف على جانبيها حشائش قصبية كثيفة تتقاطع في قلب الأراضي الرطبة.

وترك قفز السمك موجات في أعقابهم، بينما مضغ الجاموس العشب للخطر.

وقال الشبخلي، وهو المدير الفني في منظمة المناخ الأخضر العراقية، إن كل شيء على المحك، "نحن نفقد تراثنا العراقي".

وتشير الدراسات إلى وجود ما بين 200 و900 ثعلب ماء في الأهوار. وتؤدي



شج المياه يهدد الأهوار

